

حمارى قال لي ...

توبيق الحكيم ... مطبعة المعارف ١٤٧ م

للأستاذ كامل مجلان

—>>><<<—

حمار الحكيم، لين الطبع هادى التأمل، يمر خفيفاً على هامات التاريخ، يفتطف شيئاً من الدقائق القصصية مثل مشاهدته فى حادثة الطوفان... ويأبى الحكيم إلا أن يكون صادقاً فى تأملاته. فإذا نشط الحمار وتناول إلى الاشتراك فى «الدعاية» وتعرض (لهتلز ثم موسيليني) وانغمس فى جعجع الحرب، والخواطر التى تدور مع رحاها الطحون، انقلت الحمار وصاحبه إلى الأساطير الشرقية، فأرسل بشهر زاد إلى الغرب تهادى هنالك. ولا لوم على الحكيم الذى أبى إلا أن يحلم عن الحرب، وإلا أن يعيش فى أحلامه الفتنة وآرائه عن المرأة وأنكاره فى السياسة التى تجمد وتجمل فى عين السياسى ورجل الاجتماع مثل (حمارى ومؤتمر الصلح).

ومع خفة الآراء وطرافة موضوعها تطالعك شخصية الحكيم ص ٢٨ فى حزب الحمار ...

«الحمار: ألت مى؟»

الحكيم: أبداً أبداً... ما الذى صنعته إذن؟

الحمار: ماذا كنت تريد أن تصنع أكثر من ذلك؟

الحكيم: أشخاص ومكان وبنا، إنى باسيدى - كما تعلم - لا أعرف لعب الطاولة ولا الشطرنج. ولست ساحر الحديث، ولا ظريف المجلس، ولا أحب أن أكون من ذوى الجاه، كل ما عندى قلم لا أرضى أن أسخره فى هدم الأشخاص لمجرد الهدم ولا أن أستخدمه فى بناء أشخاص طمعاً فى الغنى... الخ

هذه هى أنفاس الحكيم، وتلك آراؤه الهادئة العابرة، التى لا يريد صاحبها أن يأخذ فيها بخناق أحد، ولا يرقب شيئاً إلا الإخلاص لفنه والصدقة لحماره الذى غلب كما غلب هو على أمره أيضاً.

وقد أرائنا توفيق صوراً من ظلال العاطفة المحرومة الخائفة من المرأة فى أحلامه وآرائه (حمارى والطالبة) وأبدع ونحابت وأسرف فى الصديق حين صور (العقاد) فى خوف وحذر من برائته العملاقة، ومن فرط حذر الحكيم كان فى فصل (حمارى

من الأمثال والشواهد. ثم لم تقنع بما فتح الله عليك من سحر هذا الفيض الإلهى فقلت «حينما نقول إن التصوير هو القاعدة الأساسية فى تمثيل القرآن وإن التخيل والتجسيم هما الطاهران البارزان فى هذا التصوير لا نكون قد بلغنا المدى فى بيان الخصائص القرآنية عامة ولا خصائص التصوير القرآنى خاصة... هنالك التناسق الذى يبلغ الذروة فى تصوير القرآن». فكان هذا الفصل الذى بلغت به أنت أيضاً الذروة فى التقيد والدوق والفهم. كنت أود لو أستشهد ببعض ما جاء فى كتابك من النقد التطبيقى للآيات الكريمة، ولكن تضيق عن ذلك كلتى الموجزة ويأباه ذوق الذى يأبى الفاضلة بين آى الذكر على أى وجه من الوجوه. ومهما يكن من أمر فينبغنى أن أقرر هنا أنه فى فصل «التناسق الفنى» و«القصة فى القرآن» قد بارك القرآن بجهودك فرفعتك إلى مرتقى يعتذر أن يبلغه ناقد بغير بركة القرآن...! أما أخرى الفائدتين: فهى لك أنت! لأن الكتاب فى جلته إعلان عن مواهبك كناقذ. إنك تستطيع أن تعبر أجمل التعبير عن أثر النص فى نفسك، ولا تقف عند هذا فتجاوزته إلى بيان مواضع الجمال فى النص نفسه وما يحفل به من موسيقى وتصوير وحياة، ثم تستنطق الموسيقى أنفاسها وضروبها، وتستخبر الصورة عن ألوانها وظلالها، وتستأدى الحياة حرارتها وحركتها. ولا تقنع بهذا كله! فيقرن ذهنك بين النص والنص، حتى تظفر وراء الظواهر بوحدة، وخلف الآيات بطريقة عامة، تجمل من الكتاب شخصاً حياً ذا غاية واضحة، وسياسة بارعة، وخطة موضوعية، تهدف جميعاً إلى الإعجاز الفنى فتتاله عن جدارة. فهذا ذوق جميل، وتذوق عسير وفكر ذو نفحة فلسفية...

والآن اسمح لى أن أوجه إليك سؤالاً، وأن أسوق ملاحظة:

أما السؤال: فإنك تحدثت عن التصوير والتخيل والتجسيم والتنسيق الفنى، وكل أولئك روح الشعر وليابه قبل أى شئ آخر، أفلم يحطرك أن تحدثنوع كلام القرآن على ضوء بحثك هذا؟ وأما الملاحظة فمن الفصل الذى خصصته للنماذج الإنسانية، فقد وجدت فيما استشهدت به من آيات ما يعبر عن طبائع بشرية وسجايا نفسية لا عاذج إنسانية، فالنموذج الإنسانى بمعناه العلمى شئ أشمل من هذا، وهو قد يحوى الكثير من هذه الطبائع كما قد يحوى غيرها، والمهم أنه يعرضها على نحو خاص يتفق ومزاجه الأساسى. والنماذج الإنسانية محدودة معروفة سر على اختلاف تقسيم علماء النفس لها - أما الطبائع فلا حصر لها، فلملك قصدت الطبائع لا النماذج.